# الجانب الإعلامي في شعر الرثاء السياسي عصر مملكة غرناطة

م. م. مصطفى حميد نعمة أ. د. كمال عبد الفتاح السامرائي

أ. م. د. مرتضى كمال حريجة الياسري

كلية التربية/ جامعة سامراء

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، عليه أتوكل وبهِ أستعين، الهادي العلم، والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وسلم وبعد..

الرثاء من اهم الفنون الشعرية التي طرقها الشعراء، وتلونت دواوينهم بمراثٍ تُعدّ من اجمل ما قيل في هذا الفن[١]، عرفه شعراء الجاهلية والإسلام على مرّ العصور، لقد نظرت العرب إلى الرثاء نظرة تقديرية، وعده الأصمعي (ت ٢١٦هـ) من أشرف الأشعار، وقد يجود الشعراء في مثل هذا الفن الأدبي، فهو من أهم الموضوعات التي طرقها الشعراء وأجادوا فيها، لصدق تعبير الشعراء عند فقدهم عزيز على قلبهم، فالرثاء من الموضوعات القريبة إلى النفس، لأنه يصدر عن مشاعر جياشة وعواطف حرة وقلوب مكلومة والرثاء تعبير صادق قلما تشوبه الصنعة أو التكلف[٢]. قال الأصمعي: **"قلت لإعرابي: ما بال المراثي أشرف اشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة"**[٣].

لذا فالرثاء هو تأبين الميت وتعدادٌ لمآثره، وغالباً ما يتصل هذا البكاء بالدموع والحسرات وإظهار لوعة البين والفراق[٤]، والناظر إلى الرثاء يجد أنهُ مديح للشخص المرثي من الناحية الشكلية، أما المضمون فهو يحمل في طياتهِ عاطفة الحب الممتزجة بعاطفة الحزن، والشاعر الراثي يثني على الفقيد ويذكر خصاله لكن بإحساس صادق وحزن عميق، وقلب ملتهب أما المديح فيتمثل في الثناء على الإنسان في حياته، فهناك ثمة علاقة بين الرثاء والمديح، لذا فهذا البحث يستنبط الدلالة الإعلامية في شعر الرثاء عصر مملكة غرناطة، وكيف وظفها الشعراء للترويج الإعلامي.

وقد أومأ بعض القدامى من النقاد إذْ جعلوا الرثاء فناً تابعاً للمدح، قال ابن سلام في هذا المضمار ما نصهُ " **أن التأبين مدح الميت والثناء عليه... والمدح للحي"(٥)**، وفي ربط فن الرثاء بفن المديح يقول قدامة بن جعفر: **"ليس بين المرثية والمدحية فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل: كان، وتولى، وقضى نحبه، وما اشبه ذلك، وهذا ليس يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت انما هو بمثل ما كان يمدح في حياتهِ"(٦)**، كذلك يقول ابن رشيق القيرواني: **"وليس بين الرثاء والمديح فرق إلا أنهُ يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود بهِ ميت مثل كان أو عد منا بهِ كيت وكيت وما يشاكل هذا ليعلم أنهُ ميت"**[٧].

وهو وسيلة يعرب بها المرء عن خلجات نفسه واتراحها عند فقد أحد من أهلهِ والأقارب والأصدقاء، فسبيل **"الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة، مخلوطاً بالتلهف والاسف والاستعظام، إن كان الميت ملكاً أو رئيساً كبيراً"**[٨].

ولا يختلف الشعراء الأندلسيون عن الشعراء المشارقة في المعاني والأساليب، غير أنهم توسعوا فيهِ لاختلاف الحياة والمواقف التي مرّوا بها وعاشوا فيها لإحساسهم الغربة ومن كونهم الاقلية في شبه الجزيرة الأوربية فأكثروا من التفجع والتهويل والاحزان وتمكن العدو منهم، إذ يشعرون أن العدو هو صاحب المبادرة لتفوقه بالعدد والعدة فضلاً عن شعورهم بالإحباط بعد سقوط عدد غير قليل من المدن بيد عدوهم.

وكان الرثاء الغرناطي على ثلاثة اضرب، الأول: رثاء الملوك والأمراء والقادة، والثاني: رثاء الأمام الحسين وفي طياتهِ رثاء ذو مضمون سياسي وإعلامي، والثالث: الرثاء الاجتماعي وهو ما يكون في رثاء الأقارب والاصدقاء ويكون صادقاً، وقد استجد رّثاء المدن الأندلسية التي سقطت بيدِ الأفرنجة، وسيدور البحث حول الضرب الأول والثاني وكذلك على ما استجد من رثاء المدن، وتكون هناك قرائن تلازم الشاعر ساعة الإبداع الشعر، فمن المؤكد أن الحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر وهو

يمدح الفقيد فيرثيه بعاطفة حزينة وموجعة وقد تختلف تماماً عن الحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر المادح فقد يمدح ببهجة وسرور ويضيف الأعجاب بالقيم الأصيلة والصفات الحسنة إلى ممدوحه.

ويعدّ شعر الرّثاء من أهم الموضوعات التي طرقها الشعراء، فضلاً عن أن الدواوين الشعرية تلونت بمراثي تعدّ من أجمل ما قيل في ذلك الشعر(٩).

وهذا الفن عند الشعراء الأندلسيين لا يختلف في المعاني والأساليب عن فن الرثاء الذي نقلتهُ دواوين الشعراء العرب في المشرق، إلا أنهم توسعوا فيه بميزات أكثر عما هو في المشرق وهذا التميز الذي صاحب الرثاء في الأندلس يعد طبيعياً إذ ما قورن بواقع الحياة والظروف الغير طبيعة التي مرة على أهل الأندلس، بالإضافة إلى أنهم يشعر الغربة والأقلية في شبه الجزيرة الأوربية التي يعيشون بها، فقد تميز الرثاء عند الأندلسيين بأنهم أكثروا فيهِ من التفجع والتهويل والاحزان، ويلحظ الباحث أن السبب الرئيس في هذا الإكثار هو تمكن العدو منهم حيث يشعر أهل الأندلس أن العدو هو صاحب زمام المبادرة للتفوق في العدد والعدة العسكرية كذلك ينتاب أهل الأندلس الشعور بالانتكاسة بعد سقوط عدد غير قليل من المدن بيد العدو.

عند الرجوع إلى كتب الأدب التي وثقت أدب الأندلسيين، نجد أن فن الرثاء في عصر مملكة غرناطة يتجه إلى ثلاثة أضرب، الأول رثاء الملوك والأمراء والقادة، والثاني رثاء الأمام الحسين ويتميز هذا الرثاء بأنهُ يحمل في طياتهِ الجانب السياسي والتصريح الإعلامي، أما الثالث فيطلق عليهِ الرثاء الخاص وهو يميل إلى الجانب الاجتماعي، حيث يرثي فيهِ الشاعر أقرب الناس إليه كأن يكون ابهُ أو والديهِ أو صديق مقرب وهذا الاتجاه يكون فيه صدق العواطف والتوجع، والذي يهمنا في البحث الضرب الأول والثاني.

**أولاً- رثاء الملوك والأمراء والقادة:**

يلاحظ الباحث قلة الرثاء قياساً إلى شعر المديح، واظن أن السبب هو طبيعة الحياة السياسية في المملكة، فالشاعر حين يمدح رجال الدولة فمدحهُ خطاب إعلامي يروج بهِ لهم في خضم الاحداث السياسية المتصاعدة التي تحتاج إلى زخم كبير يواكب الاحداث، على حين لا يحتاج موتهم إلاّ إلى قصيدة رثاء ويكون أكثرها مديحاً للأمير الجديد وتهنئة لهُ وترويجاً وتأييداً لمكانتهِ؛ وهذا شأن قصائد الرثاء السياسي في كل شعر بلاط تقريباً، سواء عند المشارقة والمغاربة حين يجمع الشاعر بين التعزية والتهنئة في قصيدة واحدة، ويُعّد هذا الجمع ببن غرضين مختلفين أو متناقضين من اصعب أنواع الرثاء كما يقول ابن رشيق(١٠)، ليبدأ الشاعر بعدها نشر سيرة هذا الجديد والترويج لهُ. وشعر رثاء رجالات الدولة في مملكة غرناطة يكون حسب أهمية الشخص الذي يقوم الشاعر برثائه، وينقسم إلى قسمين: الأول يكتبه الشاعر في رثاء رجالات الدولة من ملوك وسلاطين ويلقى في المناسبة. والثاني يكتبه الشاعر في رثاء رجالات الدولة وينقش على القبور.

**أ- الجانب الإعلامي في شعر الرثاء المباشر لرجالات المملكة:**

هذا النوع من الرثاء يغلب عليه الطابع التقليدي أي السير على ما اختطهُ الأقدمون فيكتب الشاعر قصيدته في مناسبات الوفاة التي تحدث في البلاط الملكي، وهذه القصائد تكون عادةً قصائد مفروضة على الشاعر كي يثبت وجوده في البلاط، يعمد الشاعر في هذه القصائد إلى عرض مفصل لحياة الشخص المتوفى من رجالات المملكة مع إضفاء نوع من الصفات للممدوح، وتندرج هذه القصائد ضمن القصائد الترويجية التي يقوم الشاعر بكتابة نصه الشعري ويلقى في المناسبة يذكر فيه الشاعر الصفات التي لم يستطع آخرون أن يطلعوا على أغلب هذه الصفات فتكون هذه النصوص في الغالب هي خطاب إعلامي يستفيد منهُ الأخرون كي يتعرفوا على أمور لم يصلوا إليها من قبل.

وعلى الرغم من أن هذه القصائد تعد من القصائد التي تذكر فيها الصفات الحميدة للمرثي والخصال النبيلة تكون خالية من العواطف الصادقة، وفقيرة في رسم الصور التي ترسم في الرثاء الخاص الذي يعبر بصدق العاطفة.

تتميز اغلب هذه القصائد بتقليدية المقدمة ومن ثم الانتقال إلى الغرض الرئيس وبعدها يقدم التهاني لمن يخلفه ومدحه وتقديم صفاته من شجاعة وكرم ونسب... إلى ما هتا لك.

وإلى جانب هذا ثمة رثاء صادق لملوك وأمراء وقادة لأنها صادرة من امراء شعراء لذويهم، وقد عبروا فيها عما في دواخلهم من فقد ذويهم وصوروا التفجع والألم الذي ألم بهم لهذا الفقد، فيعمد هؤلاء الأمراء على تصوير ما يتمتعون بهِ من جاهٍ ومالٍ وسلطانٍ لكنهم ليس لديهم القدرة على دفع الموت، فيكون الموت أجلاً محتوماً على كل إنسان سلطان أو أمير أو عالم أو فقير، فيفقد الأمراء أباءهم والملوك ابناءهم، أما في هذا الأجل الطبيعي أو في المعارك واشد ما يفجع الولد هو فقد والده، وفجع الوالد هو "**موت الولد صدع في الكبد لا ينجبر آخر الأمد**"(١١).

ومن الشعراء الذين أبدعوا في هذا الفن ابن الجياب الغرناطي، ففي رثاء بعض شخصيات بني نصر يتعمق الشاعر في معاني الموت ويسبغ على هذا الشخصيات معنىً روحياً ذا اتصال بالروح الجهادية الإسلامية، وهذا ترويج إعلامي للملك أو السلطان المرثي فيجعل المتلقي في حالة شعور مؤكد بأن هذه الرسالة التي بعث فيها الشاعر إلى الأخرين توضح الصفات النبيلة والخصال الحميدة التي يتمتع بها المرثي بخلود الروح وعظيم الجزاء على التضحية من أجل الدين، فيتأثر المتلقي المجاهد بهذا المضمون فيتسابق المجاهدون إلى الجهاد من اجل حماية الأرض والدين، إذ لا مثلهُ لكل الصفات الحميدة وللمكانة المجيدة، قال في رثاء السلطان إسماعيل بن فرج من [الطويل]:

| | |
|---|---|
| **أيـــا عبـــرةَ العـــينِ امزُجـــي الـــدمعَ بالـــدَّمِ** | **ويـــا زفـــرةَ الحُـــزن احكمـــي وتحكَّمـــي** |
| **ويـــا قلـــبُ ذُبْ وجـــداً وغمـــاً ولوعـــةً** | **فـــإنَّ الأســـى فـــرضٌ علـــى كـــلّ مُسْـــلِمِ** |
| **علـــى أوْحَـــدِ الأمـــلاك غيـــرَ منـــازعٍ** | **أصـــالةَ أعـــراق وفضـــل تَقـــدُّمِ** |
| **وَمَـــنْ مِثـــلُ إســـماعيلَ نـــورٌ لمهتـــدٍ** | **وبُشـــرَى لمكـــروبٍ وعفـــوٌ لمجـــرمِ** |
| **وَمَـــنْ مِثـــلُ إســـماعيلَ للبـــأسِ والنـــدى** | **لإصْـــراخِ مـــذعورٍ وإغنـــاء مُعـــدمِ** |
| **وَمَـــنْ مِثـــلُ إســـماعيلَ للحـــربِ يُجْتَنَـــى** | **بـــهِ الفـــتحُ مِـــنْ غـــرسِ القنـــا المُـــتحطَّمِ** |
| **وَمَـــنْ مِثـــلُ إســـماعيلَ ســـهمُ ســـعادةٍ** | **أصابَ بـــهِ الإسلامَ شاكلةَ الدمِ(12)** |

الشاعر في هذه القطعة الشعرية يحيلنا لأدراك كل المشاعر التي يتحلى بها المرثي الذي جعل منهُ الشاعر رمزاً أوحداً لكل فضل، والأسى عليهِ فرض على كل مسلم فلا آصلَ منهُ نسباً ومجداً وتقدماً، وإلاّ فمن مثلهِ لجانبي الحياة: الحرب والسلم متصاعداً بتكرار أسلوب الاستفهام المجازي الذي يستعري كل ما تحت يدّ المتلقي من فضائل ومناقب وتعظيم، وكأنهُ لوحة ارتسمت عليها تفاصيل التقدم وغيابهُ عن هذه الحياة اصابة كبرى ومصيبة عظمى، فمثل هذه المبالغة في تعداد الصفات والتأكيد عليها وإدراجها درجاً رسالة إعلامية لمكانة المرثي ولا يمكن أن تكون قبيل التفجع أو التوجع الذي يخصّ الشاعر وحده أو يُختزل بعاطفة الشاعر أو مكانة المرثي من نفسه، فالقطعة تخلو من التصوير الفني فليست هي إلا تعداد الصفات تعّمد الشاعر حشدها وإلقائها بين يدي المتلقي وكأنها توجيه لهُ لمكانة المرثي ومن يرثيه أو يرث مكانته أو سيرة ذاتية تفصيلية شاملة، ومثل هذا التعداد يستعملهُ الشاعر وسيلة من وسائل الإعلام للمملكة ورجالها، أو خطاب موجّه يحمل كثير من الرسائل الصريحة للمتلقي يحملها بيده لتأييد المملكة.

وقد مزج الشعراء بين التعزية والتهنئة للسلطان الجديد، كما هي عادة الشعراء في مثل هذه المناسبات فيبدأ الشاعر بالرثاء ويعرج إلى التهنئة لتنصيب السلطان الجديد، وهذا من الفنون التي ركز عليها شعراء المملكة للظرف الصعب الذي

يعيشونه في ظل التحديات الجسام التي يتعرضون لها. فيجعلون من هذه المناسبات منبراً إعلامياً لبث هكذا صفات يتمتع بها الشخص المرثي، كذلك يتعرض إلى مدح السلطان الجديد ويهنئهُ بتنصيبه ويسترسل بمديحهِ وخلع تلك الصفات عليه للتمكن من جذب المتلقي تجاه الوطن والدين، قال الرُندي في رثاء السلطان محمد بن نصر الغالب بالله، ويقدم التهاني إلى ولي العهد الأمير محمد الفقيه، من [البسيط]:

**مَـــا جَـــلَّ خَطْـــبٌ كَهـــذا الحـــادثِ الجَلَـــلِ ... فَلْـــيُقْضَ حَـــقُّ الأَسَـــى بِـــالأَدْمُعِ الهُمُـــلِ**
**مُصَـــابُ مَـــنْ فُجِـــعَ الإســـلامُ فيـــهِ ومَـــنْ ... سَـــكَّ المســـامعَ منـــهُ هَـــزَّةُ الجَبـــلِ**
**يـــا حســـرةَ الـــدينِ والـــدُّنيا علـــى مَلِـــكٍ ... قَـــدْ كَـــانَ حَسْـــبهُما لـــو مُـــدَّ فـــي الأَجَـــلِ**
**كَـــمْ غَمْـــرةٍ خَاضَـــهَا والثغـــرُ مبتَسِـــمٌ ... والمَـــوتُ يخطـــرُ بـــينَ البـــيضِ والأَسَـــلِ**
**وصـــعبةٍ خَاضَـــها والحـــزمُ معتصِـــمٌ ... والقـــولُ يـــنجحُ بـــينَ القـــولِ والعمـــلِ**
**ومَـــا عَسَـــى أن يُمَـــدَّ القـــولُ فـــي مَلِـــكٍ ... مـــا حـــادَ عـــن كـــرمٍ يومـــاً ولا بطـــلِ**
**ولا ازْدَهتْـــهُ مُنـــىً يصـــبُو الحلـــيمُ لهـــا ... ولا سَـــــبَتْهُ ذواتُ الأعُـــــينِ النُّجـــــلِ**
**وإنمـــــا كـــــانَ والعَليـــــاءُ تَحْفَظـــــهُ ... بِالمكرُمَـــاتِ عـــن اللَّـــذاتِ فـــي شُـــغُلِ**
**ســـقتْهُ مـــن دِيَـــمِ الرُّحمـــى مُفَضْفَضَـــةٌ ... تمـــدُّها مُـــذْهَباتُ الأدْمُـــعِ الهُمُـــلِ**
**فَكَـــم سَـــقَى للظُّبـــا والسُّـــمْرِ مِـــنْ غُلَـــلِ ... وكَـــمْ شَـــفَى للعُـــلا والمَجْـــدِ مِـــن عِلَـــلِ[13]**

فمثل هذا الافتتاح الحاسم الذي صيغَ بالنفي المطلق، بأن لا خطب كهذا الخطب في شطر، وما دام هكذا إذن فواجب قضاء حق الاسى على كلِ دمع في شطر أخر، فوسائل التوجيه في الخطاب الحسم المطلق بالنفي المطلق ممهداً إلى البيت الثاني الذي جاء تقريراً يفصل هذا الحسم بفجيعة الإسلام كلهُ، ثم في البيت الثالث اطلاق المصيبة ليس بالإسلام وحده بل بالدين مطلقاً والدنيا ايضاً على اطلاقها فلولا هذه المصيبة بهما كان المفجوع بهِ كافياً لهما كفاية مطلقة، فوسائل الخطاب كرسائل إعلامية للمبالغة وآلياتها وهي اطلاق النفي وتفاصيله أو مصاديقه المطلقة: الدين والدنيا والإسلام خاصة، أي انهيار الدين والدنيا بفاجعة موت من بيده أمرهما، ولو أن هناك من يقول لا تعتمد على شخص من الأشخاص اعتماداً بحيث يهدها من أساسها لو مات هذا الشخص[١٤]، وخلاصة هذا أن هناك من يخلف الفقيد ويجب التماسك والانتماء لأرباب هذه المملكة للخروج منها بسلام كرسالة موجهةَ إلى المتلقي وليس محض الاسى والتوجع ولا سيما والمسلمون في بلاد يحيطها الغرب من كلِ جهاتها، فتقرير الصفات والمبالغة بها في أشعار الشعراء ليس لأجل المبالغة والتفجع بل هي رسائل تملأ الخطاب الإعلامي في جهتيهِ الرثاء والتهنئة أو التعزية والتبشير بالتبديل.

ويستمر الشاعر إلى تقديم التعازي للسلطان الجديد سائلاً أله عزَّ وجل أن يلهمهُ الصبر على الفقد مذكراً إياهُ بحتمية الموت الذي هو قضاء من الله على جميع العباد بما فيهم خاتم الأنبياء والرسل النبي المصطفى (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم)، إلى جانب هذه التعزية يقدم المدح لخير خلف:

**يـــا وارثَ المجـــدِ والمُلْـــكِ الـــذي كَرُمَـــتْ ... منـــهُ الخِـــلالُ فمـــا فـــيهِنَّ مِـــنْ خَلَـــلِ**
**سَـــلِّمْ لِمَـــا قَـــدْ جَـــرَى حكـــمُ القضـــاءِ بـــهِ ... فَكُـــلُّ شـــيءٍ مِـــن الأَشْـــيَا فـــي أَجَـــلِ**
**ومَـــا بُكـــى العـــينِ بَعْـــدَ الشـــيءِ نَافِعُهـــا ... وإنمـــــا طَلَـــــلُ المفقـــــودِ كالطَّلَـــــلِ**

وأنـــتَ أكْـــرمُ مـــنْ يُعْـــزَى العـــزاءُ لَـــهُ ... وأَنْـــتَ أَثْبَـــتَ عنـــد الَهـــوْلِ والوَهَـــلِ
وإنْ مَضَـــى عَنْـــكَ مَـــوْلىً لا نَظِيـــرَ لَـــهُ ... فَقَـــدْ مَضَـــى المصـــطفى المختـــارُ فـــي الرُّسُـــلِ
وفـــي بَقَائِـــكَ للإســـلامِ تَسْـــليةٌ ... وفـــي الأَوَاخِـــرِ مَـــا يُسْـــلِي عَـــنِ الأُوَلِ
لا زَلـــتَ لِلْمُلْـــكِ والإســـلامِ تَنْصُـــرُهُ ... حَتَّـــى تُبلِّـــغَ فِيـــهِ غايـــةَ الأَمَـــلِ[15]

مفتتحاً التهنئة بالثناء على الخلف الحي، والتسليم بقضاء الله وقدره والإقرار بحتمية الموت و دنو الأجل فـ (لكلِ أجلٍ كتاب)، ومخاطبتهَ ببلغة تبعث في نفسهِ روح الصبر بعد هذا المصاب، لا سيما وأن الشاعر قريب من رئيس الهرم السلطوي فهو شاعر في البلاط ومن الأولى أن يبث هكذا جو في مثل هذه المناسبات، ويسترسل ويربط بقاء الدين الإسلامي ببقاء القيادة النصرية التي وصفها بخط الخلافة الإسلامية، ويتركز الخطاب الترويجي للسلطان الجديد في هذه القطعة الشعرية في الأبيات الأخيرة كون الشاعر في هذه الأبيات يوجه رسالة لمتلقيه يقوي فيها عزمهُ للالتفاف حول هذا السلطان لأن بقاء السلطان في مكانهِ يعني بقاء الإسلام دين الدولة الرسمي. ويعد هذا الأسلوب لهذا الضرب من القصائد التي تجمع بين التعزية والتهنئة، فتفتتح اغلب هكذا قصائد بمقدمة رثاء تقليدية، ومن ثمَ ينتقل إلى خلع الصفات النبيلة على المرثي، وبعدها ذكر الخلف لهذا الفقيد بالتهنئة والمديح[١٦].

وقد يجمع الشاعر بين الرثاء والتهنئة في المطلع وليس كما هو الشأن في تقديم التعزية ويتلوها بالتهنئة ولا يقتصر الجمع بين التعزية والتهنئة عند ابن الجياب الغرناطي في رثاء الملك محمد بن نصر الملقب بالفقيه[١٧]، وتقديم التهنئة للأمير محمد الثالث الملقب بالمخلوع على المطلع بل جعل أكثر الابيات منقسمة الأمرين في آن معاً متخلصاً من أسلوب حسن التخلص والانتقال من غرض إلى غرض يساعده في هذا اختياره للبحر المتقارب:

مُصـــابٌ جَليـــلٌ وصـــنعٌ جميـــلْ ... ومُلْـــكٌ سَـــعيدٌ وأجْـــرٌ جَزيـــلْ
فـــذاكَ يهـــيّجُ بـــرحَ الأســـى ... وهـــذا يُســـكّنُ فـــرطَ الغليـــلْ
وكـــلُّ الأنـــامِ لـــهُ باهـــتٌ ... وكـــلُّ فـــؤادٍ صـــحيح عليـــلْ
فمـــذْ غـــاضَ بحـــرُ النـــدى لـــم تَـــزَلْ ... بِحـــارُ الـــدموعِ عليـــهِ تسِـــيلْ[18]

وعلى الرغم من كون القصيدة قصيدة مناسبة والشاعر في مقام تقليدي ويدرك الشاعر هذا بكلماتهِ وتراكيبهِ التقليدية المستمدة من معجم الرثاء فإنّ هذا الخطاب يحمل رسائل للمتلقي أن وفاة الملك لم تترك فراغاً فقد سدّهُ ولي عهده الأمير محمد الثالث، ولم يترك للمتلقي فرصة الحزن أو التأسف أو اليأس فولي عهده قام مقامه، ولم يدع العدو يستغل الفرصة في غياب الملك لأن الأمير محمد الثالث قد سدّ فراغهُ وهذا كلهُ في بيت واحد.

في مثل هذه القصائد لا يبدي الشاعر صدقاً في اظهار مشاعر الحزن إزاء هذه الفاجعة، والمتلقي يتلمس هذا الشي فلا يشعر بحرارة العاطفة من الشاعر لكنه يدرك أن الشاعر يريد إيصال رسائل من خلال طرحه لهذه المصطلحات التي تكون عبارة عن أدوات لخطاب إعلامي يستفاد منهُ لغرض آخر يكون من ضمن مضماره في هذه المناسبة فيستخدم الشاعر البراعة اللغوية لإيصال هذه الرسائل.

وقد يكون الخطاب في قصائد الرثاء من شعراء هم من ذوي السلطان محملاً برسائل إعلامية ابعد أثراً في المتلقي من جهة واصدق مشاعر من جهة أخرى للصلة التي تجمعهم بالمرثي ومنها رثاء أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر للمستعين بالله من [الكامل]:

ذهَـــــبَ السُـــــــلوّ بِطَـــــأرِقِ الْأَرْزاءِ إذْ صَـــــأرَ جِسْـــــمُ المُلـــــكِ ذَا أجْـــــزَأءِ
وَتَمَزَّقَـــــتْ بِالْـــــدُوْدِ قَامَتُـــــهُ الْتِـــــي كانَـــــتْ كَمِثْـــــلِ الصَّـــــعْدَةِ السَّـــــمْرَأءِ
مَـــــنْ قَـــــدَّمَ السَّـــــعْيَ الْحَمِيْـــــدَ كَمِثْلِـــــهِ يَحْظَـــــى بِغُفْـــــرَانٍ بِيَـــــوْمِ جَـــــزَأءِ
شـــــهْمٌ إذَا مَـــــا الْحَـــــرْبُ شَـــــبَّ ضِـــــرَامُهَا يَمْشِـــــي إلَيْهَـــــا مِشْـــــيَةَ الْخُـــــيَلَأءِ
مَـــــنْ لِلْخِلَافَـــــةِ بَعْـــــدَهُ فِـــــي مَغْـــــرِبٍ فِـــــي حَضْـــــرَةِ الْأَمْـــــلَاكِ وَالْأُمَـــــرَأءِ
تَنْمِـــــي بِهَـــــا أمـــــلَاكُ أنْـــــدَلُسِ الَّتِـــــي نَصْـــــرُ بْـــــنُ عُـــــرْبِ الْعُـــــلَا الْعُرَبَـــــأءِ
سَـــــأدَتْ بِسَـــــعْدٍ جَـــــدَّها أبِـــــي عُبَـــــأ دَةَ حَـــــأمِي الرِّسُـــــوْلَ يَـــــوْمَ كُـــــلَّ وَقْـــــأءِ
وَحَـــــوَتْ بِأَحْمَرِهَـــــا الْأَمِيـــــرِ مَفْـــــأخِراً أوْدَتْ عَلَـــــى التِعْـــــدَادِ وَالْمَضَـــــأءِ[19]

وعلى الرغم من أن نسبة التفجع والتأسف التي بالغ بها الشاعر فقد يراها واجبة في ابدائها ليتضخم حجم المكانة إعلامياً للمرثي فقد أكثر من تعداد الصفات الممدوحة في حالتي السلم والحرب ولكن المغزى الرئيس الذي تصل من بين تعداد هذه الصفات هو أنهُ كان من اصول حمت الرسول وأيدته في رسالته وهذا لهُ ابلغ الأثر في عقيدة المتلقي.

ومن رثاء الأمراء لذويهم رثاء يوسف الثالث في رثاء والده من [البسيط]:

أودى الزَمـــان بِمـــنْ كُنـــا نَلُـــوذُ بـــهِ فـــي حالَتِيـــهِ معـــاً فِـــي العُســـرِ واليُســـرِ
فلا تثق بجفونٍ بانَ ناظرها غَمضْ جفونكَ لا ولا بملـــك فقيـــد الســـمعِ والبصـــرِ
تنظـــــر إلـــــى أحـــــدٍ فلـــيس بعـــدَ أفـــول البـــدرِ مِـــنْ نظـــرِ
واعجَـــبُ مِـــنْ الـــدهرِ والأيـــام إذ طمســـت مطـــالعَ الزَّهـــرِ أو أخفـــتْ شـــذا الزهـــرِ
هَـــل كـــانَ إلا حيـــاً يحيـــى العبـــادَ بـــهِ هـــل كـــان إلا قِـــذىً فـــي عـــين ذي عـــورِ
إن قـــالَ قـــولاً تـــرى الأبصـــار خاشـــعةً لمـــا يُحبَـــرُ مـــن وحـــيٍ ومِـــنْ خَبَـــرِ
أو قـــامَ فـــي مُنتـــدٍ أو حـــلَ فيـــهِ حبـــاً أراك حِلـــمُ ابـــن قـــيسٍ فـــي تقـــى عُمـــرِ[20]

وهنا تنحسر التهنئة ويبقى الرثاء متميزاً من شعر شعراء البلاط بصدق العاطفة وصدق التعبير عن الفجيعة، وهنا يعظم تأثير الخطاب في المتلقي، ونجد أن الخطاب لا يخلو من هدف إعلامي برغم أن الرثاء هنا رثاء اجتماعي، ولكنهُ صادر من طبقة حاكمة، فيذكر ما يتمتع بهي المرثي من مكانة عُليا بين أبناء قومهِ وهو سيدهم، وكذلك يورد ما يتمتع بهِ هذا السلطان من شجاعة تذهل الأعداء أيام المعارك والنزال، كذلك يعرج على النسب الشريف لبني الأحمر وموقف الأنصار من الرسول الكريم(صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم)، وهذه الأمور التي ذكرها عبارة عن رسالة قام بتكوينها الشاعر كي يدلي بها إلى المتلقين لمعرفة ما لهذا الفقيد من فضل بين قومهِ والصفات التي يتمتع بها حكام هذه المملكة، وهنا تعداد الصفات الحميدة أمر مألوف لأن فن الرثاء في ذاتهِ وحقيقتهِ مدح، ولكن الفرق في المدح يوجه إلى حي، والرثاء كذلك مدح إلا أنه يتضمن ما يدلُ على أنهُ موجه لميت[٢١].

ويستمر الحكام في رثاء كبار رجالات الدولة في حالة الوفاة، والسير على الوتيرة التي سار عليها باقي الشعراء من ذكر للصفات الحميدة والنسب المشرف الذي ينتمون إليه ملوك وسلاطين بني الأحمر، إلا أنهم يختلفون بعض الشيء عن عامة الشعراء، كون الرثاء صادر من ذوي المرثي فيكون بينهم قرابة بالنسب والدم كأن يكون المرثي هو السلطان الكبير والراثي هو الابن أو الأخ، وهذا الموضوع أي إذا كان الراثي من ذوي المرثي، فتكون الرسالة مؤثرة في المتلقي على صدق العاطفة والمشاعر، وأن الرثاء ليس بسياسي فحسب وإنما رثاء اجتماعي تدخل فيه العاطفة الأسرية.

ولا تقتصر مراثي الحكام الشعراء على التأبين فقط بل نجدهم كُلُّهُمْ يؤمنون ويقرّون بحتمية الموت الذي فرضهُ الله على عباده، لا يفرق بين أحدٍ منهم، فيقوم الشاعر بصياغة الصور الفنية التي تتفق مع فلسفة الموت، ويسترسل الشعراء ليترحموا على الفقيد ويرجون من الله الشفاعة والأجر والثواب لهم ولهُ، وهذا أمراً يدخل ضمنياً مع قصائد الرثاء ويكون ذا أهمية كبيرة إذا صدر مثل هكذا خطاب إشهاري من سلطان أو أمير، فهذه الإشارات تدل على أن سلاطين بني نصر هم خط الخلافة الإسلامية، قال يوسف الثالث في رثاء والده السلطان عبد الله من [الطويل]:

**رَجونـــا لعبـــدِ الله مـــا يبلـــغُ الأَمَـــلْ ... ومـــا يقتضِـــهِ صـــالح القـــولِ والعمـــلْ**

**فوافـــاهُ حُكـــم اللهِ والقـــدر الـــذي ... إذا كـــانَ منـــهُ الحكـــم فـــالأمر ممتثـــلْ**

**فُجعنـــا بـــهِ واللهُ يكتـــبُ أجرنـــا ... كمـــا فجعـــت قبـــلُ الخلائـــف والـــدولْ[22]**

فالشاعر الأمير يوسف الثالث يصرح ضمنياً في شعر الرثاء على حتمية الموت وهو أمر قضاه الله تعالى، ويأتي هذا التصريح من ضمن الخطاب الترويجي الذي يراد منه إيصال رسالة للمتلقي يوضح لهُ على الرغم من المكانة العالية التي يتمتع بها ملوك بني نصر إلا انهم يؤمنون بقضاء الله وحكمه، في النتيجة الاخيرة أنهم يسيرون على خط الخلافة الإسلامية فيجب على الجميع الوقوف مع الخلافة ضد هذا العدو الكافر، وهذه هي رسالة تأكيد تبث في الخطاب لتوصيل المعلومة.

التصريح بالإشارات التي تؤكد على حتمية الموت لم تقتصر على الأمراء من الشعراء بل حتى عامة شعراء البلاط صرحوا بها، ولم يقتصر هذا التصريح على المقدمات والمضامين بل نجد تلك الإشارات وردت في أغلب المقاطع، قال أبو البقاء الرُندي ذاكراً حديث الموت من [السريع]:

**المـــــوتُ ســـــرُّ اللهِ فـــــي خَلْقِـــــهِ ... وحِكْمَـــــةٌ دَلَّـــــتْ علـــــى قَهْـــــرِهِ**

**مَـــا أَصْـــعَبَ المـــوتَ ومَـــا بَعْـــدَهُ ... لَـــوْ فَكَّـــرَ الإِنْســـانُ فـــي أَمْـــرِهِ**

**لا تُلْهِـــــكَ الـــــدنيا ولـــــذَّاتُها ... عـــــن نَهْـــــي مَـــــولاكَ ولا أَمْـــــرِهِ**

**وانظـــر إلـــى مـــنْ ملـــك الأرضَ هـــل ... صـــح لـــهُ مِنهـــا ســـوى قبـــرِهِ[23]**

هذا الخطاب التصريحي يستعمله الشعراء لتوجيه رسالة غير مشفرة إلى المتلقي لتوضيح موقف المسلمين من الموت، وهذه القطعة الشعرية فيها الكثير من التصريح بحتمية الموت، وهو قضاء الله وقدره يقهر بهِ جميع العباد ولا يستثنى منهُ أمير أو فقير، ويسترسل في خطابه على ما بعد الموت وهو أدهى، فعلى الإنسان التفكير أولاً قبل القدوم على أي عمل ويركز الشاعر في البيت الثالث على الابتعاد عن ملذات الدنيا وإتباع ما يأمرك بهِ الله جلَّ وعلا، وفي الختام إشارات صريحة لوعظ الحكام والسلاطين بأن الإنسان بعد فناهِ لا يملك من الدنيا سوى القبر الذي يوارى بهِ، الشاعر هنا يوصل بهذه الرسالة الوعظ والارشاد لكل متلقٍ مسلم قد لا يفهم فلسفة الموت، ورسالة الشاعر هنا رسالة توجيهية استطاع من خلالها أن يوجه هذه النصائح إلى عباد الله من العامة وكذلك رسالة إلى الخاصة من حكام وسلاطين، وأن يوضح للجميع هذا النهج الديني الذي

يملأ طيات الرسالة، هو من يسير عليه حكام هذا البلاط كون الشاعر من شعراء البلاط وكل كلام يصدر عنهُ هو كلام رسمي كون صفتهُ الرسمية بمثابة الناطق الإعلامي في وقتنا الحاضر.

**ب- الرثاء السياسي وشواهد القبور:**

وهو لون آخر من ألوان الرثاء في كبار رجال الدولة، يؤلفهُ الشاعر لينقش على قبر المتوفى، وكان الغرض منه هو تكوين وثيقة في رثاء الشخص المعني تنقش على قبرهِ، وقد تعلق ملوك وسلاطين غرناطة بهذا النوع من الرثاء، لأنهُ كان ينقش على قبورهم ليبقى شاهداً على هذا السلطان أو ذاك الملك(٢٤).

وقد كان على الشعراء ممن كان قريباً من الحاكم – بحكم وجودهم الرسمي – أن يكتبوا في هذا اللون من الشعر عند الحاجة إليهِ فهو من ضمن الأعمال المناطة إليهم، ويعد سنة سار عليها ملوك غرناطة (٢٥) في تخليد موتاهم، واغلب شعر هذا النوع يتميز بخلوه من العاطفة كالذي سبقه، فهو عبارة عن صناعة يظهر فيها الشاعر تميزه في اختيار البحور الشعرية والتلاعب بالألفاظ والعبارات.

إذا قارنا هذه الأشعار (شواهد القبور) الملوك نجدها لا تختلف عما سبقها من رثاء رجالات دولة بني الأحمر وجلَّ من كتب المراثي والقطع الشعرية المنقوشة على قبور الملوك والسلاطين هم من شعراء البلاط الملكي، ويكون المبتغى من هؤلاء الشعراء في كتابة هذه الأشعار هو اضفاء الصفات الحميدة والخصال النبيلة على ملوك وسلاطين بني الأحمر وإن كان اظهار المبالغة فيها واضحاً فأن الجدوى منها اثبات وثيقة للمرثي يطلع عليها المتلقي وهي الجزء الأكبر من الخطاب الإشهاري الذي تُستدل لهُ الملك الذي يخلف المتوفى كونه خير خلف لخيرِ سلف، وهي رسالة يريد منها الشاعر أن تبقى شاهداً يتداولهُ الناس، تعد ايضاً رسالة موجهة إلى الاجيال يثبّت بها الشاعر مرور هذا الحاكم ملكاً أو أميراً على خدمة الناس والمملكة بوصفها رسالة مستقبلية توثيقية.

عند البحث في المصادر وجد الباحث ونقلاً عن كتاب النقوش الشعرية الأندلسية للدكتور (مرتضى كمال حريجة) إذ يقول "**ولم يصل إلينا من الشعر المنقوش في غرض الرثاء سوى قصيدة واحدة تقترب في منحاها العام من رثاء الممالك والملوك، وتقع في ثلاثة عشر بيتاً نقشت على رخامة قبر السلطان محمد الأول بن الأحمر مؤسس مملكة بني نصر في غرناطة، وقد نقلت رخامة القبر إلى متحف الحمراء**"(٢٦)، فقصد الكلام أن الذي تم رؤيته بالعين في هذه السنوات القريبة سوى هذه الرخامة اليتيمة الفريدة(٢٧)، قال فيها شاعرها من [البسيط]:

**هـــذا محـــلُّ العُلـــى والحلـــمِ والكـــرمِ قبـــر الإمـــام الهُمـــام الطـــاهر العلـــمِ**
**لله مـــا ضـــمَّ هـــذا اللحـــد مـــن شـــرفٍ جـــمٍّ ومِـــنْ شـــيمٍ علويّـــةَ الهمـــمِ**
**فالبـــأس والجـــود مـــا تحـــوي صـــفائحه لا بـــأس عنتـــرةٍ ولا نـــدى هـــرمِ**
**معنـــى الكرامـــة والرضـــوان يعمـــرهُ فخـــر الملـــوك الكـــريم الـــذات والشـــيمِ**
**مقامـــهُ فـــي كـــلا يـــومَيْ نـــدىً ووغـــى كالغيـــثِ فـــي المحـــل أو كالليـــثِ فـــي الأجـــمِ**
**مـــآثرٌ تُليـــتْ آثارهـــا سُـــوراً تقـــرّ بـــالحق فيهـــا جملـــةُ الأمـــمِ**
**كأنـــهُ لـــم يسِـــرْ فـــي جحفـــلٍ لجـــبٍ تضـــيق عنـــهُ بـــلاد العُـــربِ والعجـــمِ**
**ولـــم يُعـــاد العـــدى منـــهُ ببـــادرة يفتـــرّ منهـــا الهُـــدى عـــن ثغـــرٍ مبتســـمِ**
**ولـــم يجهّـــز لهُـــم خـــيلاً مضـــمّرةً لا تشـــربُ المـــاء إلا مـــن قليـــبِ دمِ**
**وَلـــم يقـــمْ حكـــمَ عـــدلٍ فـــي سياســـتهِ تـــأوي رعيتـــه منـــهُ إلـــى حـــرمِ**

مَــنْ كــان يجهــل مــا أولاهُ مــن نعــمٍ ... وَمــا حمــاهُ لــدينِ الله مِــنْ حُــرمِ
فتلــكَ آثــارهُ فــي كُــلِّ مكرمــةٍ ... أبــدى وأوضــح مِــنْ نــارٍ علــى عَلــمِ
لا زالَ تهمــي علــى قبــرٍ تضــمنهُ ... ســحائبُ الرحمــة الوكافــةُ الــدّيمِ[28]

ففي هذه القطعة الشعرية المنقوشة على قبر السلطان محمد الأول، يستعرض الشاعر كل الخصال النبيلة والصفات الحميدة ليرثي بها السلطان المتوفى، ويلحظ الباحث أن الشاعر قد مزج بين غرضين في هذه القصيدة بين الرثاء والمديح وإن كانت هي للمديح أقرب، لكن دأب الشعراء في نهاية كل قصيدة رثاء الدعاء بالسقيا إلى ضريح الفقيد فيعرف المتلقي أن القصيدة في غرض الرثاء، فيجد المتلقي نفسه امام قصيدة الغرض منها ابراز الخطاب التشهيري للترويج إلى شخص السلطان وتثبيت وثيقة توضح الصفات التي كان يتمتع بها رجال هذه المملكة.

وفي قصيدة للشاعر ابن الجياب نقشت على قبر السلطان أبي عبد الله ثالث ملوك بني نصر[٢٩]، ولا تختلف هذه القصيدة عن سابقاتها من هذا اللون من القصائد، فهي خطاب إعلامي يثبت فيها جميع الخصال الحميدة، قال ابن الجياب من [الطويل]:

رِضَــى المَلِــكِ الأعلــى يَــرُوح ويَغْتَــدِي ... علــى قَبْــر مَوْلانــا الإمــامِ المؤَيَّــدِ
مَقَــرُّ العُلــى والمُلْــكِ والبــأس والنَّــدى ... فَقُــدّس مــن مغْنًــى كــريم ومشــهدِ
ومثــوى الهــدى والفضــل والعــدل والنهــى ... قَبُــورِكَ مِــن مَثْــوى زكــي ومَلْحَــدِ
فيــا عجبــاً طــودُ الوقــارِ جلالــةً ... ثَــوى تحــتَ أطبــاقِ الصَّــفِيحِ المنَضَّــدِ
وواسِــطَةُ العقْــد الكــريم الــذي لــهُ ... مــآثر فخــرٍ بــينَ مثنــى وموحــدِ
مُحمــدُ الأرضــي[30] سَــلِيلُ مُحَمَّــدٍ ... إمــامُ الهُــدَى نَجْــلُ الإمــامِ مُحَمَّــدِ
فيــا نُخبــةَ الأمــلاكِ غيــر منــازعٍ ... ويَــا عَلَــم الأعــلامِ غيــر مُفَنَّــدِ
بَكَتْــكَ بــلادٌ كُنــتَ تحمــي ثُغُورَهــا ... بِعَــزْمٍ أصــيلٍ أو بــرأيٍ مُسَــدَّدِ
وَكــم مَعْلــمٍ للــدينِ أوضــحتَ رسْــمَهُ ... بَنَى لَكَ فِي الفردوسِ أرْفَعَ مَصْعَدِ[31]

الشاعر ابن الجياب في هذه القصيدة لم يخرج عن الاطار الذي رسمهُ الشعراء في هذا اللون من رثاء الملوك والسلاطين والأمراء في دولة بني الأحمر، فقد ذكر مآثر الفقيد، وعَدد الخصال الحميدة والصفات النبيلةَ لهُ، وأشاد بهِ غاية الإشادة، ولم تذكر أي حرقة قلب أو عاطفة جياشة تذكر، وإنما استثمر الشاعر مناسبة الوفاة كي يثبت في هذه الوثيقة للمار من أمام هذا القبر أن الفقيد كان يتمتع بما ذكر في هذه اللوحة الشعرية، فهو بذلك سخر أدوات الخطاب الإعلامي لإيصال هذه الرسالة للمتلقي، وقد اصبح هذا الخطاب كالوثيقة التي تثبت ما كان عليه المرثي، وتأكيد مفاهيم قد درج عليها العامة في نظرتهم للمتوفى.

فشعر الرثاء الذي ينقش على قبور الملوك والسلاطين والأمراء، عبارة عن شعر مديح غايتهُ تدوين مآثر الفقيد، وهو أمر درج ملوك وسلاطين غرناطة الأحياء لصنه هذه الهالة الإعلامية لمن فقد من أسلافهم، وقد كانوا شعراء البلاط نعم المعين المساعد فيما أرادو فكانوا بذلك ناطقهم الأمين[٣٢].

**ثانياً– رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) وسيلة إعلامية وسياسية.**

عند ذكر المذاهب الدينية التي تداولت في بلاد الأندلس تجد أن المذهب المالكي[٣٣] هو الذي ساد أبان حكم بني الأحمر، فضلاً عن وجود الظاهرية (٣٤) وهناك من تأثر بالحكم الفاطمي الذي كان قريباً إلى حدود الأندلس، ومن الطبيعي أن يتعصب كلاٌّ إلى مذهبه ولكن ليس بالتعصب الشديد يقول الدكتور جودت الركابي: "**أما التعصب فلم يكن على درجة واحدة في مختلف الأدوار التي مرَّ بها المجتمع في هذا العصر... وكان لهُ اثر في إذكاء الشعور الديني في نفوسهم**"[٣٥]، فهذا الوضع من التعايش السلمي يتيح للجميع التعبير عما في النفس وكذلك التصريح والكشف عن العقيدة التي يعتقدون بها، لا بل يعطيهم كل المساحة للتعبير فنجد الشعراء في العصور الأندلسية التي سبقت عصر سيادة غرناطة يفصحون عما في معتقدهم من دون أي تردد، وخير مثال الشاعر ابن حزم الأندلسي الذي عبر عن الكثير من العقائد في شعره وافصح فيهِ عن اعتناقه المذهب الذي يعتقد بصحتهِ وهذا أمر يعود لهُ والذي يجاوره في هذا المعتقد، فلا ضير فيما يكتب من الشعر الذي يصرح ويروج فيهِ عن اعتقادهُ المذهبي.

وتستمر الحياة الأندلسية على هذه الوتيرة التي لا تجعل من التلون المذهبي أي تعكير لصفو المسلمين، وقد شهد القرن السابع انفتاحاً استغلهُ الشعراء في التعبير عن معتقدهم فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الشاعر ابن الجياب الغرناطي يعبر عن حبهِ للأمام الأمام علي (عليه السلام) وإيصال رسائلهم إلى متلقيهم ويذكر بعض العقائد فقال في مقدمتها من [الكامل]:

**مدينـــةُ العلـــمِ الرســـولُ وأنَـــهُ ... بـــابٌ لهـــا وكفـــى بـــذلك مفخـــرا**

**فلـــهُ التقـــدمُ فـــي الفضـــائل كلّهـــا ... لـــم يلـــفَ قـــطُّ بحالـــةٍ متـــأخرا**

**وإذا انتمـــى ألفيـــتَ سلســـلةَ العُلَـــى ... قـــد خُلّصـــت فغـــدتْ نضـــاراً أحمـــرا**

**فـــإذا اختصـــرتَ فخيـــرُ آل محمـــدٍ ... وإذا اطلعـــتَ فقـــد ركبـــتَ الأبحُـــرا**

**فاجعـــلْ محبتـــهُ ســـبيلَكَ واقتصِـــدْ ... لا تَقْـــلُ غيـــرَ الحـــقِ فيـــه فتكفُـــرا**[36]

فهذه القصيدة تعد من أشهر قصائد ابن الجياب المدحية، يقول جامع الديوان الباحث مشهور الخبازي "**أما حبَّ علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، فكان واضحاً في قصيدة طويلة تقع في مائة وخمسة وعشرين بيتاً مدحهُ فيها، وذكر مراحل حياتهُ ومشاركتهُ في غزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الرسول عليه السلام مدينة العلم وعلياً بابها وهذا معتقد شيعي ثم يدعو إلى محبة نجليهِ**"[٣٧]. وهذا رأي الخبازي نفسه وعندنا مأخذ عليه إذ يقول أنهُ **(معتقد شيعي)** بينما يُنقل هذا الحديث في كتب الصحاح.

الشاعر يصرح في هذه القطعة الشعرية للمتلقي عن المذهب الذي ينتمي إليهِ، وهذا يعد خطاباً إعلامياً يفصح فيه الشاعر عن اعتناقه لمذهب معين، ولو لم يجد الشاعر الأرض الخصبة لهذا الخطاب ما صَرّح بهِ، لا بل هو يدعو إلى مذهبه ويروج لهُ ويدعو إلى محبة الأمام وآل البيت عليهم السلام.

وكذلك نجد الشاعر لسان الدين بن الخطيب يدلي بمثل هذا الخطاب في شعره، فلهُ قصيدة يوضح فيها الانتماء المذهبي وأكثر صراحة من الشاعر ابن الجياب، قال من [الطويل]:

**أعاتـــبُ دهـــراً لا يصـــيخُ إلـــى عتـــبِ ... واســـألُهُ صـــفحاً ومـــاليَ مـــن ذَنْـــبِ**

**وأعلـــن بالشـــكوى إلـــى غيـــرَ راحـــمٍ ... فأشـــكو، وقـــد عـــزَّ العـــزاء إلـــى رَبِـــي**

**أبـــا حســـنٍ مـــا للزمـــانِ ينوشـــني ... كأنـــك لـــم تعلـــمْ بـــودي ولا حبـــي**

**ومَـــن لـــي بـــأقوامٍ علـــيَّ تـــألَّبوا ... أســـالمهم دهـــري، ويســـون فِـــي حربـــي**

**وانـــتَ علـــيٌ قـــد عَلَمْـــتَ تشـــيعي فكـــن ناصـــري وادرأ جمـــوعَ بنـــي حـــربِ**[38]

فالشاعر يبين بوضوح مذهبهُ الذي يعتنقهُ، ويشكو من يخالفه والدعوة صريحة، وهي ايضاً رسائل إعلامية يبينها الشاعر قد تدخل من ضمن الإعلام الدعوي.

هذا النقل التاريخي هو نزرٌ يسير، كون الباحث يميل إلى الإيجاز لا الأطناب في الموضوعات التاريخية، لكن هذا اليسير إن دلَّ على شيء فأنهُ يدل على التنوع المذهبي الذي كان سائداً في بلاد الأندلس والمساحات الواسعة التي كان يستغلها المسلمون في ممارسة طقوسهم الدينية، على الرغم من أن هذه البلاد أسسها أحد أفراد البيت الأموي وشهدت هذا التعايش بين طوائف المسلمين، على العكس من بلاد المشرق العربي التي عاشت عصوراً من التخندق الطائفي، ويلحظ الباحث أن بعد المسافة للمسلمين في بلاد الأندلس عن موطنهم الأصلي، والتحديات الجسام التي تواجههم هي التي جعلت وحدتهم في الوقوف بوجه أعداء الدين والوطن.

من بين جميع أئمة أهل البيت الأطهار، برزت بقوة قضية رثاء الإمام الحسين عليهِ السلام، وإذا ما قيست برثاء الإمام الحسن عليه السلام، على الرغمِ مِن أنَّ الحسن والحسين عليهما السلام إمامان وأخوان وأنهما من أهل البيت الذي أذهب الله عنهم الرّجس وطهرهم تطهيرا، وهما من أصحاب الكساء كما ورد ذلك عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "**خرج النبي** (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم)**غداة وعليهِ مرط مرحّل من شعرٍ أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخلهُ، ثم جاء الحسين فدخل معهُ، ثم جاءت فاطمة**(عليها السلام) **فأدخلها، ثم جاء علي** (عليه السلام) **فأدخلهُ في المرط المذكور ثم قال نقلاً عن الوحي الذي حضر في تلك الساعة:** فقال من سورة الأحزاب **(إنّما يُريدُ اللهُ ليذهبَ عنكم الرجسَ أهل البيت ويطهركم تطهيراً )** [39]..."[40] ، تجد هناك فرقاً شاسعاً ونسبةً ضئيلةً، حيث يرى الدكتور زكي مبارك؛ إنَ تعمد الأمويين بإعلامهم في الإساءة إلى سمعة الحسن(عليه السلام) من الوجهة السياسية، وفشلهم في ذلك مع الحسين(عليه السلام)، جعل الشعراء يبدون ويعيدون في الثناء على هذا الشهيد.[41] ، مع مكانة الإمام الحسن(عليه السلام) بوصفهِ رمزاً دينياً وتاريخياً، وأن كليهما اغتيلا اغتيالا سياسياً، لكن الشعراء مالوا لذكر الحسين(عليه السلام) في أشعارهم.

وعلى الرغم من أن الأندلس كانت في بدايات التأسيس أموية الهوى ووثق هذا اللون من الرثاء في الشعر الأندلسي في هذا العهد وما سبقهُ من العهود، وكان يعرف هذا اللون من الشعر بالرثاء الحسيني أو (الحسينيات)، وهي المراثي التي قالها الشعراء في رثاء الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وقد وجد هذا اللون من الرثاء في عهد المرابطين حسب رأي الدكتور إحسان عباس[42]، وقد تطور هذا اللون من الرثاء في قابل الأيام حتى مجيء القرن السابع الهجري نضج هذا الموضوع، وكُتب الكثير في هذا الأمر بين قصائد ومؤلفات أخرى في الأخبار التي تخص الحسين(عليه السلام) وأهل البيت بشكلٍ أوسع، فمن ضمن المؤلفات كتاب (مناقب السبطين الحسن والحسين) لمحمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي (ت ٦١٠هـ) [43]، وكتاب (معادن اللجين في رثاء الحسين) و (در السّمْط في خير السّبط) للشاعر ابن الأبار البلنسي (ت ٦٥٨هـ) [44]، وقد وردت أخبار كثيرة تخص هذا الموضوع في كتب التاريخ وتاريخ الأدب الأندلسي ككتاب (نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب) للمقري التلمساني، وكتاب (مقدمة ابن خلدون) لابن خلدون، وكتاب (الذيل والتكملة) لعبد الملك المراكشي.

فعبد الملك المراكشي يقول: "**وانفرد من تأبين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركتهُ من حكايات كثيرة**"[45]، ويعضد الرُندي في كتابهِ (روض الأنس ونزهة النفس) رثاء شعراء الأندلس الأوائل للإمام الحسين(عليه السلام) بقولهِ لابن الأحمر: "**وقد رثي الحسين قديماً وحديثاً**"[46] وكذلك يقول الرُندي أن "**ممن بكاهُ فأحزن، ورثاهُ فأجاد وأحسن، أبو بحر**

**صفوان بن إدريس الأندلسي ... وحسينياتهُ كثيرة مشهورة"**[٤٧]، ويقال أن الرُّندي لم يكن شاعراً فحسب بل كان إلى جانب ذلك مؤلفاً وناقداً وفقيهاً محدثاً " **كان في الجملة معدوداً في أهل الخير وذوي الفضل والدين"**[٤٨].

وقد تميزت مدينة مرسية عن المدن الأندلسية الأخرى بالمبالغة بإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين(عليه السلام) ، حيث يصنع جو من الحزن في المدينة ويقام مشهد يجسد هذه المأساة ترافق هذا المشهد إيقاد البخور وتشعل الأضواء وتقام بعد هذا المشهد الولائم وتلقى القصائد التي تخص الذكرى بأصواتٍ مرتفعة منشدة ومجسدة واقعة كربلاء الأليمة[٤٩]. وبقيت هذه التقاليد إلى سقوط الأندلس بسقوط غرناطة وقد ذكرها لسان الدين بن الخطيب في كتابه بقولهِ: **"أن هذه المراثي تسمى الحسينية"**[٥٠].

لقد استثمر الشعراء في عصر بني الأحمر قضية رثاء الإمام الحسين(عليه السلام) ليجعلوا منها منبراً إعلامياً ولتكون ثورة الإمام الحسين(عليه السلام) محفزاً لاسترداد الحقوق ومحاربة المغتصب وبث خطاب ضّد الظلم والتعسف، قال الرُّندي في رثاء الإمام الحسين(عليه السلام) من [الوافر]:

**أبيـــتُ فـــلا يســـاعدني عـــزاءُ إذا ذُكـــرَ الحســـين وكـــربلاء**

**فخـــل الوجـــد يفعـــل مـــا يشـــاء لمثـــلِ اليـــومَ يُـــدخرُ البكـــاء**[51]

بمثل هذا التصريح يرثي الشاعر الأمام الحسين(عليه السلام) كرسالة تأكيد يوجهها إلى المتلقي لديمومة حزنه عليه والانتماء إليهِ فلا حزنٍ إلا عليه، ولا يليق العزاء والبكاء إلا على مثله، ولم تأتِ كربلاء هنا للقافية لا بل على مكانة القضية الحسينية الاستشهادية.

وفي قطعة شعرية أخرى يعرف الشاعر ابن جابر الأندلسي انتماء الحسن و الحسين (عليهم السلام) إلى من لا يعرفهم من [الطويل]:

**وبالحســـــنينِ الســـــيّدينِ توسُّـــــلي بجـــدّهما فـــي الحشـــرِ عنْـــدَ تفـــردي**

**همـــا قُرَّتـــا عـــينِ الرســـولِ وســـيّدا شـــبابِ الـــورى فـــي جنَّـــةِ الخلْـــدِ فـــي غـــدِ**

**وإنَّ الحُســـينَ الصـــابرَ الحـــازمَ الـــذي متـــى يُقْصـــرِ الأبطـــالُ فـــي الحـــربِ يَشْـــدُدِ**

**شـــبيهِ رســـولِ اللهِ فـــي البـــأسِ والنـــدى وخيـــرُ شـــهيدٍ ذاقَ طَعْـــمَ المُهَنَّـــدِ**

**لمصـــرعهِ تَبكـــيْ العيـــون وحقُّهـــا فللّه مِـــنْ جُـــرْمٍ وعُظْـــمِ تَمـــرَّدِ**

**فبُعـــداً لِمَـــنْ يُبْغِضُـــهُمْ ويســـبُّهم ومَـــنْ ســـارَ مســـرى ذلـــكَ المقصـــدِ الـــردي**[52]

يوظف الشاعر أسلوب التوسل فيقدم الحسنين (عليهما السلام) ويؤخر جدهما الرسول الكريم (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) لإستقامة البيت وهذا من ابداع الشاعر الفني، ويستحضر احاديث للرسول(صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) ليضمنها في البيت الثاني، ففي صدر البيت يستحضر حديث الرسول(صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) الذي يقول فيه "**الحسن والحسين قرة عيني وريحانتاي من الدنيا**"[٥٣]، وفي عجز البيت يستحضر الحديث النبوي "**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة**"[٥٤]، ويؤكد على صبر الحسين الذي ليس لهُ حدود وقد كان واضحاً يوم كربلاء، وكذلك يؤكد الصفات النبيلة المتمثلة بالحزم والبأس الذي ورثهما عن رسول الله(صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم)، ويسبغ صفة (خير شهيد) على الإمام الحسين، ويشير الشاعر إلى المصرع الجلل الذي وقع في كربلاء وهو من المصارع التي

لا تنقطع العيون من البكاء لهُ ويوكد الشاعر على السير في نفس نهج الإمام الحسين (عليه السلام) ، وهو أشرف نهج على النقيض من نهج أعدائه.

وقال ناهض بن محمد الوادي آشي في الحسين (عليه السلام) من [الكامل]:

أَبْكـــي قَتِيـــلَ الطَّـــفِّ فـــرعَ نبينـــا ... أَكْـــرِمْ بِفَـــرْعٍ لِلْنُبـــوّةِ زاكِـــي

ويـــلٌ لِقَـــوْمٍ غـــادَرُوهُ مضـــرَّجاً ... بِدِمَائِـــهِ نضْـــواً صـــريعَ شِـــكَاكِ

مُتَعَفِّـــراً قـــد مُزّقـــتْ أَشْـــلاؤُهُ ... فَرْيـــاً بِكُـــلّ مُهَنّـــدٍ فَتّـــاكِ[55]

وبذا قد أوصل رسالة جامعة للمتلقي تلم بمكانته وقربهِ من رسول الله (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم) وكذلك الصفات التي ورثها من جدهِ والنهج الذي سار عليه، وهذه رسالة يثبت بها الشاعر التابعية إلى الحسين وآل بيت النبوة (عليهم السلام) ، وكيف قضى بسيوف آل أمية وترك في العراء مقطع الأشلاء.

يلحظ الباحث في رثاء رجالات الدولة أن عاطفة الشعراء في هذا الرثاء غير صادقة وكذلك خروج هذا الاتجاه من الشعر إلى اتجاه آخر، وبذا فهو يستغل هذه المناسبات الحزينة ليجعل منها منبراً لإيصال رسائل من ضمن غرض الرثاء، يدخل المديح وتعداد الصفات النبيلة وكذلك الحفاظ على الدين وغوث المجاهدين من ضمن رثاء السلطان المتوفى، أما في رثاء الإمام الحسين فيستذكر الشعراء هذه الفاجعة الأليمة ويذرفوا الدموع لحزنها ويستشهدوا بهذه الثورة ليذكروا بمظلومية الإمام الحسين عندما نادى بالإصلاح في أمة جده الرسول الكريم (صلى الله عليهِ وآلهِ وسلم)، وهو بهذا يريد إيصال رسالتين الأولى: يوجب على الجميع نصرة غرناطة كي لا ينهار فيها الحكم الإسلامي وبالنتيجة غياب شمس الإسلام بانهيار الحكم هناك، والثانية التصريح بما يعتنق من مذهب وجميع هذه المذاهب هي روافد الإسلام والنتيجة تكون واحدة على جميع المذاهب نصرة الحكم الإسلامي في غرناطة.

**المصادر والمراجع:**


١- اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، د. نافع محمود، ط١، مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٠م: ١٧٥.

٢- الشعر الجاهلي، خصائصه وفنونه، يحيى الجبوري، ط٣، مطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، سنة ١٩٨٢م: ٣١١.

٣- العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٣م: ٣/ ٢٢٨.

٤- ظ: الأدب العربي في الأندلس، د. عبد العزيز عتيق، ط١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٣م: ١٩٤.

٥- طبقات فحول الشعراء: ١/ ٢٠٩.

٦- نقد الشعر: ١١٨.

٧- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٢م: ٢/ ١٤٧.

٨- المصدر نفسه: ٢/ ١٤٧.

٩- ظ: الرثاء في الشعر العربي، دكتور محمود حسن أبو ناجي، ط١، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٨م: ١٤.

١٠- ظ: العمدة: ٢/ ١٥٥.

١١- العقد الفريد: ٣/ ٢٥٨.

١٢- ديوان أبي الحسن بن الجياب، دراسة وتحقيق: الباحث مشهور عبد الرحمن حسين الخبازي كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، قسم اللغة العربية، ١٩٨٣م: ٢٢٢.

١٣- الوافي في نظم القوافي، أبو البقاء الرُندي، مجلة جامعة الأنبار، العدد الأول، لسنة ٢٠٠٩م: ٨٤ – ٨٥.

١٤- المصدر نفسه: ٨٦.

١٥- ظ : حركة الشعر في النجف الاشرف وأطواره خلال القرن الربع عشر الهجري، دراسة نقدية، د. عبد الصاحب الموسوي، ط١، دار الزهراء للطباعة والنشر، سنة ١٩٨٨م: ٢٠٤.

١٦- الوافي في نظم القوافي: ٣٠.

١٧- ظ: خريدة القصر وجريدة العصر، محمد بن صفي الدين العماد الأصفهاني، تحقيق محمد المرزوقي وآخرون، ط٣، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة ١٩٨٦م: ١/ ٣٣٨ – ٣٤٤.

١٨- محمد بن محمد بن يوسف الأنصاري الخزرجي، ثاني ملوك بني الأحمر حكم غرناطة (٦٧٢ – ٧٠١).

١٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، ط٦، دار صادر بيروت، لبنان، سنة ٢٠١٢م: ٤/ ١٢٨.

٢٠- ديوان أبي الحسن بن الجياب: ٥٨٣.

٢١- ديوان الأمير الرئيس أبي الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر، دكتور صابر إسماعيل بدوي، مجلة بحوث كلية الآداب – جامعة المنيا: ٨٥١ – ٨٥٢.

٢٢- ديوان يوسف الثالث: ٧٥.

٢٣- العمدة: ٢/ ١٦٦.

٢٤- ديوان أبي الطيب صالح بن شريف الرُندي، تحقيق: الدكتورة حياة قارة، ط١، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، سنة ٢٠١٠م: ٨٦.

٢٥- الإحاطة في اخبار غرناطة، لسان الدين بن الخطيب، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، ط١ مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، سنة ١٩٧٧م: ٣/ ٣٧٣.

٢٦- ظ: ابن الجياب الغرناطي حياتهُ وشعرهُ، د. علي محمد النقراط، ط١، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع، بنغازي، ليبيا، سنة ٢٠٠٣م: ٢٦٠.

٢٧- ظ: المصدر نفسه: ٢٦٠.

٢٨- مخطوط مكتبة مدريد الوطنية: ٥٣٧١، نقلاً عن كتاب النقوش الشعرية الأندلسية: ٣١٦.

٢٩- النقوش الشعرية الأندلسية في قصور الحمراء بغرناطة الإسبانية، الدكتور مرتضى كمال حريجة، ط٣، دار الوارث للطباعة والنشر، سنة ٢٠٢١م: ٣١٦.

٣٠- حكم غرناطة من (٧٠١ – ٧٠٨) ظ: ابن الجياب الغرناطي حياتهُ وشعرهُ: ١٣١.

٣١- في الإحاطة ( الرَّضيُّ ) .

٣٢- ديوان أبي الحسن بن الجياب: ٢٠١.

٣٣- ظ: ابن الجياب الغرناطي حياتهُ وشعرهُ: ٢٦١.

٣٤- ظ: النقوش الشعرية الأندلسية: ٣٨.

٣٥: * الظاهرية : مذهب نشأ في بغداد، ويقوم على أن المصدر الفقهي هو ظواهر النصوص في الكتاب والسنة، يعد داود بن علي الأصبهاني المولود في الكوفة (٢٠٢هـ) هو المؤسس لهذا المذهب أو الحركة الفكرية، ويُعد ابن حزم الأندلسي المجدد لهذا المذهب. ظ : مدخل الفقه الإسلامي : ١٣٦.

٣٦- في الأدب الأندلسي، رضوان الداية، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، سنة ٢٠٠٠م: ٤٧.

٣٧- ديوان أبي الحسن بن الجياب: ٢٦٣.

٣٨- المصدر نفسه: ٨٤.

٣٩- ديوان الصيب والجهام والماضي والكهام، لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتحقيق: د. محمد الشريف قاهر، ط١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة ١٩٧٣م: ١٦٦.

٤٠- سورة الأحزاب الآية: ٣٣.

٤١- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ – ٢٦١هـ) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، مصر (د.ت): ٤/ ١٨٨٣.

٤٢- يرى الدكتور زكي مبارك في كتابهِ (المدائح النبوية) ؛ إنَ تعمد الأمويين بإعلامهم في الإساءة إلى سمعة الحسن (ع) من الوجهة السياسية، وفشلهم في ذلك مع الحسين (ع)، جعل الشعراء يبدون ويعيدون في الثناء على هذا الشهيد. ظ : ٦٨.

٤٣- ظ: تاريخ الأدب الأندلسي، محمد زكريا عناني، دار المعارف الجامعية، القاهرة، مصر، سنة ١٩٩٩م: ١٩٦.

٤٤- كتاب الأعلام، خير الدين بن محمود الزركلي، ط١٥، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سنة ٢٠٠٢: ٦/ ١٩١.

٤٥- ظ: المصدر نفسه: ٦/ ٥٤.

٤٦- الذيل والتكملة لكتابي المواصلة والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري المراكشي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة ١٩٧٣م: ٤/ ١٤٠.

٤٧- روضة الأنس ونزهة النفس: ٥٦.

٤٨- المصدر نفسه: ٥٦.

٤٩- الإحاطة في أخبار غرناطة: ٣/ ٣٦.

٥٠- أعمال الأعلام، مخطوط ص: ٣، نقلاً عن محمد نوح يونس عبد الله: ٢٣٢.

٥١- ظ: المصدر نفسه: ٢٣٢.

٥٢- المصدر نفسه: ٢٣٢.

٥٣- ديوان الرُندي: ١٦٥.

٥٤- ديوان ابن جابر الأندلسي، محمد بن أحمد بن علي الضرير (ت ٧٨٠ هـ)، صنعة: الدكتور أحمد فوزي الهيب، ط١، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، سنة ٢٠٠٧م: ٦٤ – ٦٥.

٥٥- أعلام الهداية، لجنة التأليف، ط٣، مركز الطباعة والنشر لمجمع العالمي لأهل البيت(عليهم السلام)، قم المقدسة، ايران، ١٤٢٧هـ: ٣/ ٣٢.

٥٦- نفح الطيب: ٦/ ٣٧٣.